

الفصل الثالث عشر

أولى الخطى في جمران

أصدرت أوامري للشاحنة أن تتبع الطريق وتتوقف في مواقع حددتها لإعداد القهوة والمأكولات السريعة، بعد أن قررت أن أتحوّل إلى الطريق المباشر الذي يقود إلى تصلال.

أنهيت مهمتي في تصلال وعصورها القديمة وضرينا الطريق في مسار معوجّ عبر سهل جذيم إلى حيث التل البارز المسمى الشعثاء^(١) - يبعد حوالي ستة كيلومترات وهو ملازماً للطريق من عند برق الدرّة - حيث أدركنا رفاقنا بعد قيادة مسافة ثلاثة أميال. لم نتراخ كثيراً هنا، غير أنني قمت بجمع بعض الثمار من بعض أشجار الطلع (سمر وسلم) والتي كانت تكوّن أجمة كثيفة في هذا الجانب من السهل. كان اليوم، حتى هذه اللحظة، جميلاً وبارداً على عكس اليوم السابق الذي هبت فيه العاصفة الترابية، غير أنه مع تقدم النهار، بدأت الرياح تهب من جديد حاجة المنظرية بالغيوم.

مررنا أثناء السفر ببعض الإبل الحلوب، وهي تستريح في ظلال بعض الشجيرات - ولا أحد يقوم برعايتها- أو على الأقل، لم نر أحداً، ولم يعترض أحد على رفاقي الذين سارعوا بقحفهم وأوانيهم التي يبلغ تعدادها نصف الدسته، وعادوا بها وهي ممتلئة بالحليب الطازج، الدافئ، ذي الرغوة. ينتمي البدو

(١) تل الشعثاء: يطلق عليه أيضاً اسم (الشعث)، ويقع إلى الشمال الشرقي من مطار نجران. (ابن جريس).

في هذه المنطقة إلى آل الهندي بصفة أساسية -والذين، مثلهم مثل قبيلة آل مرة، يعدون فرعاً من شم^(١) - وآل فاطمة، بينما يتردد الأسلوم وآل رزق بدورهم على مراعي حبونا. تنتمي كل هذه العناصر الأربعة إلى يام، والذين، إلى جانب قبيلة دهم (من منطقة الجوف)، يلتقون عند جد مشترك هو همدان بن زيد.

اتجه طريقنا ناحية الجنوب الغربي من عند الشعثاء مسافة خمسة أميال حيث تنحدر التلال المحيطة لسهل جديم إلى الغرب (أي إلى يميننا) ومع الطريق إلى بقعة حادة تسمى الوعير، ومنها تلتف التلال حول خليج واسع ناحية الشمال الغربي. انحرف الطريق هنا إلى ناحية الغرب عبر وتر هذا الخليج، الذي احتوى على أشجار أراك كثيفة نسبياً وعلى شجيرات طلع منخفضة، تقع كلها على مسافة (٣٠٠) أو (٤٠٠) ياردة من موقعنا على اليسار تجاه الوادي نفسه. وصلنا إلى مقبرة أخرى تقع بين الطريق وبين الزاوية التي تكونها التلال عند المنحنى تجاه نجران شبيهة بتلك التي في تلال - ربما كانت مقبرة للحجاج الذاهبين أو العائدين من الكعبة، أو ربما كانت فقط مكاناً للدفن لموتى المسافرين، أو ربما كانت بالصدفة مقبرة حربية في موقع لمعركة في أزمان سابقة. لا يستطيع دليلنا حسن أن يلقي الضوء على هذا الموضوع رأساً من ذاكرته أو من المعلومات المحلية.

كانت المقبرة أقل نظاماً مقارنة بتلك التي في تلال، غير أن بعض القبور كان ذا حجم كبير، كما كانت هنالك روابٍ منخفضة، والتي، إن كانت دائماً قبوراً بالمرّة، فقد بدأت وكأنها مشتركة، ربما دالة بذلك على معركة. كان قطر أحد هذه الهضاب المستديرة (١٢) خطوة وكان بداخلها دائرة داخلية أخرى قطرها ثلاث

(١) هذا هو النطق المحلي لجشم. (المؤلف).

خطوات ونصف الخطوة، وترتفع إلى حوالي قدمين ونصف القدم فوق مستوى المحيط الخارجي، الذي كان معلماً ببلكات من حجارة وبالأسلوب المعروف. كان ترتيب القبور المنفردة متبايناً كثيراً، وكان الاتجاه من الرأس إلى القدم (٢٤٤)، و (٢٥٦)، و (٢٦٦)، و (٢٨٠) درجة في الحالات الأربعة التي تحققت منها باستخدام البوصلة. هذا يوحي بأن الدفن تم بتوجيه الوجه ناحية الشمال أو الشمال الغربي، بمعنى آخر، تجاه مكة. كانت المسافة من الوعير إلى بئر الخضراء تبلغ حوالي خمسة أميال ناحية جنوب الجنوب الشرقي.

توقفت لإجراء مسح لأرض وعرة من عند قمة هضبة المنارة، وهي عبارة عن رابية صغيرة، قبل الانتقال إلى ما يليها، كنا قد غطينا حوالي (٧) أو (٨) أميال وكانت التلال - الجانب العكسي لتلال شرا والذي يرى من عند الحصينة - على يميننا وليست بعيدة عنا وكان السهل الرملي أو كثبان الوادي على يسارنا وهي مغطاة إلى درجة معقولة بالأراك والطلح، والحمض وشجيرات خفيضة متنوعة. انطلق طريق السيارات، بصفة عامة، غرباً على مسافة متساوية تفصله من التلال ومن المجرى، والذي تتفرع منه مجاري صغيرة من حين لآخر مخترقة له ومتجهة إلى المجرى السابق. كان شعيب الدخول بطن سيل رئيس من هذا النوع، وعلى جانبه الأيمن وقفت هضبة المنارة، بينما يقع على حوضه إلى جهة اليسار بئر قديم مهجور يسمى العريسة.

كان علينا أن نفاضل ونختار مساراً أفضل من تلك الأرض السيئة التي قابلتنا، التي كانت ممتلئة وبكثافة بتلال رملية يكسوها الأراك، كان علينا أن نقود سياراتنا خلالها بأقصى ما نستطيع، وذلك حينما نكون فوق رمال لينة، وحيناً نقود

فوق سبخه خطرة. كان طول المسافة من المنارة إلى برك، عبر هذه البلاد، حوالي خمسة أميال على امتداد الجانب الأيسر لشعيب دخول الذي يلتقي مع وادي نجران فوق البرك، حيث تتكون جزيرة صخرية في الأخير، طولها نصف ميل وعرضها (١٠٠) ياردة. كانت المسافة من برك إلى الخضراء، على امتداد المجرى، حوالي ستة أميال.

وصلنا منارة، وهي هضبة جرانيتية، ترتفع من (١٢٠) إلى (١٣٠) قدماً، وقد تسلفتها لأنظر للصورة الحقيقية الجميلة لنجران نفسها، والتي كانت أقرب مزارع نخيلها وقراها على بعد أربعة أميال من موقعنا، إلى الأمام، قليلاً ناحية الجنوب الغربي. امتدت من ورائها مزارع النخيل المتشابكة الرؤوس، إلى البعيد وإلى أقصى ما يمكن رؤيته فوق الوادي الضيق نسيباً والذي تحيط به من كلا الجانبين سلاسل جبلية عالية وقد انطبقت على رأسها المعلم الأرضي الرئيس للوادي، وهو القمة العظيمة الجرانيتية التي تسمى أبو همدان وكانت شامخة من خلف مزارع نخيل الحظن. أستطيع أن ألمح هنا وهناك بين النخيل مجرى السيل الواسع الرملي للوادي، وهو يتعرج خلال الواحة إلى فجوة (عان أزم) وليدخل بحرية للصحراء فيما يليها.

مررنا ونحن نواصل رحلتنا، بمجموعة صغيرة من الرضم (قبور) على جانب الطريق، وعلى يميننا، وتبعد حوالي (٢٠٠) أو (٣٠٠) ياردة فقط من المنارة، وتقع قريبة من الخط الذي يسهل تتبعه ويقود إلى سد قديم من صخور وتراب يخرق السهل، إلى طرف مجرى الوادي، فيما يبدو. قد يكون قصد بهذا السد حجز المياه التي يحملها شعيب الأثابية الذي يقع إلى أمامنا، وقد يدل على أنه في أزمان قديمة كانت زراعة الحبوب، على الأقل، تمتد مسافة إلى أسفل أكثر من حدودها الحالية عند منجم على مسافة ثلاثة أميال من هذا السد.

بدأنا البحث عن عدة خيارات للطريق ونحن على بعد ميل واحد، وفي شعيب الأثابية الصعب الذي ينحدر في مجريين تفصلهما مسافة نصف الميل عبر انبعاج واسع للسهل الذي يسمى سعيد، من عند التلال التي بدت الآن بعيدة إلى الخلف وعلى يميننا .

وصلنا إلى مجموعة صغيرة من القصور بعد مسيرة ميلين آخرين، كانت متجمعة داخل سور عند طرف إحدى مزارع النخيل في آل منجم، حيث توجهنا إلى ساحة مكشوفة في وسط النخيل بجوار قرية زبيد الصغيرة حيث أمضيت أول ليلة لي في واحة نجران. كانت المسافة، عن طريق السيارات، من عند الحصينية حوالي (٣٠) ميلاً، علماً بأننا قد غطينا (٣٥) ميلاً عن طريق التحويل إلى تسلال. كان ارتفاعنا هنا (٤٥٠٠) قدم فوق سطح البحر، يتباهى قسم منجم التابع لنجران بأنه خالٍ من البعوض، وذلك، كما يقولون، لغياب البرك المائية، والمستنقعات والنزوز، والتي كانت كلها تضحج بالبعوض قليلاً إلى الأمام من هذا الموقع .

أخذت الحكومة أحد قصور زبيد لتسكن فيه فرقة صغيرة من الشرطة ورفرف عليه علم السعوديين، الذي أصبح لونه أبيض مع تقدم الزمن، فوق السارية. كان المسؤول عن هذه الفرقة هو أسامة بن عبدالرحمن الذي اعتبر نفسه مضيفاً لنا، وحقيقة فإنه قد فعل كل شيء لراحتنا. أخبرني خلال حديثه عن قصر الرئاسة للأمير، في قصر ابا السعود، أن عدد الجنود السعوديين كان ١٠٠ جندي نظامي و (١٠٠) رجل أمن، كانوا مستقرين. كما كانت هنالك ست نقاط شرطة منتشرة في الواحة، في آل منجم، (زبيد)، ورجلا، والأخدود، والحضن، ونهوقة،

والموفجة، وشعب بُرآن. كانت الحامية في زبيد مكوّنة من عشرة رجال فقط، ولم يكن جميعهم حضوراً في ذلك الوقت، ولدهشتي، فقد وجدت نفسي وهم ينظرون إليّ كأنني موظف حكومي مهم جداً في جولة تفقدية، وكان كل فرد منهم متطلعاً إلى أن يدلي إليّ بكل ما لديه من معلومات. حتى القرويون، أحسوا بمقدم قوة شرائية سهلة وبالأمل في تصحيح مشاكلهم الثانوية، تجمعوا حول معسكرنا ومعهم من المؤن المعروضة للبيع بالكثافة التي اضطر معها الشرطة إلى إبعادهم عنا.

كان من الصعب عليّ أن أوضح أنني لا أمانع إطلاقاً من مثل هذه المضايقات، وبمرور الزمن، تمكنت أن أقبض بيد من حديد ليس على الحشد، ولكن على الشرطة.

تزاحم الأطفال كالنحل من حولنا غير أنني شغلتهم في خدمتي فأرسلتهم يبحثون لي عن عينات من التاريخ الطبيعي لغرض إثراء مجموعتي مقابل العطايا الصغيرة التي كنت أقذفها دون اهتمام كبير ودون علمي بأن ذلك سيقود لخرابي. كانت الشمس على وشك الغروب حينما وصلنا، ولم يحدث شيء خلال الساعة أو الساعتين التي تلت ذلك، قبل أن يذهب بسطاء القرية إلى النوم، وكان بعضهم قد شاركنا وجبة العشاء، غير أننا لم نجد للراحة طعماً منذ الساعات الباكرة لصباح اليوم التالي. إذ يبدو أن كل أطفال القرية قد قاموا بسرقة كل أعشاش الطيور المحلية، ثم جاءوا ليضعوا الفراخ الصغيرة، تحت أقدامي! كان باكورة هذه الخدمات زوج من فراخ البلبل ثم تبعته هداهد صغيرة، وبدا لي أن ما قصده الصغار في آل منجم هو الحصول على ثروة وبأقل جهد. لكنهم اكتشفوا سريعاً أن

ما قدموه من صغار الطيور قد فاق وفاض على احتياجاتي وأني لن أدفع ثمناً آخر لأكثر من عدد معين لنوع واحد من الكائنات، ثم انصرفوا على هذا الأساس، ليعودوا ومعهم ضفادع وسحالي وثعابين، وقد رحبت كثيراً بصنفين من الخفافيش. يحق لبعض كبار القرية أن يتشككوا في سلامة عقلي، غير أنهم أعجبوا باستعراض لكرمي الفياض. كان من بين الحشد يهودي جذاب جداً، اسمه جميل الذي سأرى عن جاليتة الصغيرة - التي تقيم بصفة مؤقتة في نجران داخل البوابة - الكثير خلال زيارتي هذه.

لما كان الغد هو يوم الجمعة فقد رأيت أنه من الأجدر بي أن أتراخى لفترة عند هذا الجانب للواحة لأتخاشى بذلك التطفل على الحاكم أثناء توجهه للصلاة وما يتبعها من استقبال رسمي. لذلك، وبعد أن تحصلت على ما بدا لي أنه نماذج مناسبة للمجموعة الحيوانية في آل منجم، توجهت إلى نقطة الشرطة لأتخاشى الحشد، ومن عند سطح المكان استطعت أن أقوم بمسح للواحة عن قرب وبسرور. كان بعض هذه القصور المحلية - وكل واحد منها كأنه قلعة رهيبة، وكما يقول مثلهم «قلعة النجراني هي منزله» - مؤلفاً من خمسة طوابق بينما كان معظمها مؤلفاً من أربعة طوابق وبعضها الآخر بثلاث طوابق فقط. كان كل قصر منفصلاً عن الآخر وعلى مرمى السهم من جيرانه إلا في حالة قصور آل منجم، حيث يلاحظ ما يقارب نصف دستة من القصور وهي متلاصقة متقاربة أو داخل حظيرة مشتركة مما يعطي الانطباع بأنها قرية صغيرة^(١). لم أر في كل نجران حالة مماثلة لحياة المجتمع كما هي هنا.

(١) من يزور نجران في وقتنا الحالي فإنه يشاهد العديد من القرى والقصور القديمة المتناثرة في أجزاء عديدة من المنطقة، حبذا لو تم الاهتمام بمثل هذه الآثار القديمة في جميع أنحاء المناطق الجنوبية، وهذا مما يزيد في رصيدها السياحي والتنموي. (ابن جريس).

يجب أن أذكر هنا، عرضاً، أنه في أيام السلم، كالتي عشناها منذ حرب اليمن ١٩٣٤م، كان أهل نجران - إلى حد بعيد - يعيشون في الساحات المكشوفة وبعيداً عن مزارع النخيل، داخل زرائب أو عشش من أعواد الأراك، ذلك لتحاشي حمى الواحة - خاصة خلال موسم الأمطار حينما يستقبل الوادي سيول متكررة على فترات منتظمة.

رجعنا إلى السكن بالمركز الرئيس بالقيادة بعد الساعة الحادية عشرة صباحاً تاركين مزارع الفرحة ومواصلين السفر خارجها على طرف وادي سعيد الكبير، وقد انبعج إلى جهة الشمال في خليج كثيف الشجر مسافة ثلاثة أميال إلى موقع متصل فيه شبه دائرة التي تكونها التلال إلى حزام النخيل في تعزة وترك ممراً ضيقاً جداً يعبره الطريق. عبرنا فيما يلي هذا، حقلاً لنبات الحلفاء النجيلي على الجانب القريب من نخيل سكر والتي يطوق الطريق حافتها الجنوبية. بدأ الطريق الآن يشق مساره عبر حقول زراعية وعبر جسور محفوفة بالمخاطر فوق مجاري الري العالية الجوانب، والتي وصلنا، فيما يليها، إلى المدخل الرئيس الشرقي للبناء الحكومي المستطيل العظيم الذي يعرف باسم قصر أبالسعود^(١). لم تزد كل الرحلة من عند آل منجم عن سبعة أميال أو ما يقارب ذلك. كانت المسافة من الحصينة أقل من (٣٧) ميلاً بقليل، وكانت من عند تفرع طريق أبها - نجران إلى الورااء البعيد، حوالي (٢٦٠) ميلاً (٤١٥) كيلومتراً حسب تسجيل عداد السرعة).

لقد استقبلت عند المدخل استقبالاً رسمياً على رأسه سالم، القائد العسكري المحلي للقوات والشرطة، ومعه فرقة من حرس الشرف، ثم أوصلونا إلى البوابة

(١) قصر أبو السعود: - بناء يتكون من دورين ونصف بالإضافة إلى مرافق وغرف عديدة ملحقة به. ويقع في وسط البلد، وأصبح اليوم من المعالم الرئيسة في منطقة نجران يرتاده السواح والمصطافون من كل مكان. (ابن جريس).

المركزية التي تقع إلى الجنوب والتي كانت الغرف الواسعة التي حجزت لي ولرفاقي فيما يليها. سيكون هذا مقري مدة شهر على الأقل إلى حين أن أبدأ رحلتي الطويلة إلى شبوة في الرابع والعشرين من يونيو.

تركت زملائي لتفريغ السيارات وتنظيم العفش ورافقت سالمًا والأعضاء الرئيسيين لمجموعتي للذهاب إلى قاعة الاستقبال في منزل الأمير حيث قابلني إبراهيم النشمي بترحيب شديد وهو أحد الأفراد البارزين في الجزيرة العربية الحديثة. كان إبراهيم بحكم عمله تاجرًا من سكان القصيم، وفي هذا الإطار فهو رجل مهم بين تجار القوافل (العقيلات) على طرق الأردن وسوريا. لقد نجح تمامًا في هذا المجال خاصة أثناء الحرب العظمى، غير أنه برز عسكرياً خلال حصار المدينة الذي قام به السعوديون عام ١٩٢٥م. ذهب إلى هناك ضمن جيش الأمير محمد، عندما قرر ابن سعود سحب قوة الإخوان بقيادة فيصل الدويش على أمل أن تستسلم المدينة، تحت ضمان بالمعاملة الإنسانية من جانب المنتصرين. كانت المدينة في ضائقة شديدة بالنسبة للطعام. وأعلن النشمي، الذي كان قائداً على المنافذ الشرقية، أن كل المواطنين الذين يستطيعون الهروب من المدينة سيتم الترحيب بهم في معسكره ويؤمن لهم كل احتياجاتهم. قوبل عرضه بالترحيب على مستوى كبير وكان اسمه على لسان كل أسرة في المدينة، مما قاد إلى الاستسلام في (٥/ ديسمبر/ ١٩٢٥م).

ظل النشمي في خدمة الحكومة وكانت آخر مرة قابلته فيها في ينبع حين كان أميراً عليها، لبعض السنوات قبل زيارتي إلى نجران، ومنذ الحرب اليمنية كان النشمي يشغل نفسه وبنجاح في أداء الواجب الصعب لتهدئة واحدة من أكثر

مناطق الجزيرة العربية اضطراباً. غير أنه أعفى من منصبه في العام التالي، وتم نقله إلى إدارة المشروع الحكومي الزراعي الكبير في الحرج^(١)، حيث تمكن بالفعل من تحويل الصحراء إلى جنة كأنها الورود حينما زرته عام ١٩٤٠م^(٢). لقد شغل -بالمناسبة- قائداً عسكرياً، أثناء حرب اليمن، وكان مسؤولاً عن القوات الاحتياطية في أبي عريش مسانداً لحملة فيصل في تهامة.

وجدته الآن متحمساً لتاريخ وتقاليد نجران، وأخبرني أنه يتحرى الآن بعض الشائعات التي أطلقها زائر من صعدة عن وجود أعمال تاريخية قديمة في نجران. كان النشومي سعيداً لسماعه اكتشافاتي الشخصية في تصلال وفي سهل المنقع (قطن) كما لَّح لي، في كلمات قليلة، أن تحضيراته لي حول رحلتي إلى الجنوب تسير بصورة حسنة. تحدث النشومي لفترة عن مشروعني لإعداد خريطة للحدود اليمنية ووعده بالمساهمة إلى أقصى حد في استكشافي لنجران نفسها.

ذهبت بعد ذلك لزيارة الموظف الرئيس المسؤول عن أموال الدولة في المنطقة ويسمى سيد علي الجنيدى، والذي سبق لي أن قابلته وهو في موقع مماثل في العلا عام ١٩٣١م. قدم لي سيد طبقاً، على سبيل التسلية، لعنب أبيض لذيد من وادي الفرع المجاور، عبر الحدود، حيث تقوم زراعة العنب على مستوى تجاري كبير. ينمو العنب الممتاز في وادي نجران، ولكن، ولسبب ما، لعله عدم الأمان

(١) ثم عين أميراً للخرج من غرة محرم (١٣٦٣هـ) إلى غرة محرم (١٣٦٦هـ) إلا أنه مكث في الحرج قرابة ثمانية عشر عاماً أي من (١٣٥٧هـ) إلى (١٣٧٥هـ). وتوفي سنة (١٣٩٨هـ) في لندن ودفن في مقبرة العدل في مكة المكرمة. للمزيد انظر: عبدالرحمن السبيت. رجال وذكريات مع عبدالعزيز. ص ١٨ - ٤٩. (ابن جريس)

(٢) يعيش الآن - وقد تقاعد - في الحرج في مزرعته الخاصة. (المؤلف).

القديم، فإن زراعة العنب قد أهملت كمحصول تجاري^(١). تضمن كرم السيد علي أيضاً تقديمه سيجارة لي غير أنه أدرك أنني أفضل تدخين الغليون، وكنا ندخن في استرخاء حينما دخل علينا الأمير. رجاني الأمير أن أوصل التدخين غير أنني أطفأت غليوني، كان من عادتي ألا أدخن في حضرة موظفي الحكومة الكبار، إذعانا للأمر العام بمنع التدخين، والذي -على أي حال- لم يعد معمولاً به الآن.

اجتمعنا كلنا عند الساعة الرابعة مساءً في سكن الأمير، وهو بناء كبير، ومشتت إلى حد ما، غير أنه جديد، ومن طابقين ويقع داخل فناء القصر الضخم وفي مقابل البوابة الجنوبية. كانت الدعوة للعشاء قد وجهت أيضاً لكل الموظفين المحليين الرئيسيين، لمقابلتنا في تلك المناسبة وقد قابلت من بينهم، ولأول مرة قاضي نجران الذي جمع بين الصلاحيات الشرعية والقضائية، الشيخ عبدالمحسن، وهو من مواطني عنيزة. وقد كان كثير الاهتمام بالشؤون الجغرافية وتساءل عن أعمال المسح، وتحديد دوائر العرض، إلخ. كما يبدو أنه منهمك في تأليف كتاب عن قبائل منطقة نجران وتاريخها القديم. تناولنا في العشاء إلى جانب لحم الضأن والأرز -وقد كانا في غاية الامتياز- عناقيد عنب نجران من حديقة مجاورة، وليست في جودة تلك التي وصلت من وادي الفرع المجاور وعبر الحدود غير أنها جيدة بما يكفي.

(١) نجران أرض غنية بمزارعها ومتوجاتها الزراعية منذ القدم، وقد ذكرتها كثير من كتب التراث الإسلامي، ووضحت نوعيه المحاصيل الزراعية التي تشتهر بها أرض نجران، لمزيد من التفاصيل عن دور نجران الزراعي، انظر: الهمداني، صفة، ٣٤٥ - ٣٦١؛ محمد الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) ج١، ص ١٥١، أبو القاسم الاصطخري، مسالك الممالك (بيروت: دار صادر، د.ت) ص ٢٤، عماد الدين إسماعيل أبو الفداء، تقويم البلدان (طبع في مدينة باريس بدار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠م) ص ٩٣.

نما إلى علمي أن أهل نجران، وإلى وقت قريب، كانوا يتحاشون تناول الخضراوات من أي نوع كانت، باعتقاد أنها كانت سبباً لحمى الواحة، غير أنهم في الفترة الأخيرة عملوا على نهج حركة التنوير للدعوة السلفية الجديدة ومنذ ذلك الحين وزراعة الخضراوات في ازدياد. شجع النشمي هذا الاتجاه إلى أقصى حد، وظهرت على مائدته وبانتظام الطماطم الممتازة، والباذنجان، وأصابع السيدة (البامية) وخضراوات أخرى^(١). كان رجلاً ذا حماس شديد. وكان محدثاً عظيماً وذكياً، مع ميل عنده إلى السيادة في النقاش، إذ أنه مثقف إلى حد بعيد وتقدمي. كان النشمي حقيقة أشبه ما يكون بسلك كهربائي حي. شديد البطش بما فيه الكفاية على المولعين بالأذى، غير أنه إنسان عطوف تجاه الضعفاء والمحتاجين. خرج النشمي يتمشى مع الشيخ بعد العشاء إلى طرف مجرى الوادي، بينما اجتمعت في سكن علي الجنيدي^(٢) مع القائد سالم، وموظفين آخرين لتناول القهوة والتدخين، وأمضينا ساعة أو ساعتين في تجاذب أطراف الحديث.

أخبرت بأن القوات اليمنية قد مكثت مدة ثمانية أشهر محتلة لنجران من خريف عام ١٩٣٣م إلى ربيع ١٩٣٤م، حينما تمكن السعوديون من طردهم أخيراً. لقد حطموا عدداً من القصور أثناء احتلالهم - وقد رأيت واحداً منها عبر الوادي، في زبيد، موطن ابن مرضي بجوار مزرعة نخيل عمير - ومزارع نخيل يملكها أناس ينظرون إليهم في شكوك، يضمرون العداوة أو فاترين. كان الشيخ القحطاني ابن مذكر يقود الكتبية السعودية التي دخلت وادي نجران عن طريق وادي الأثابية

(١) ويصدر اليوم من نجران إلى أسواق كثيرة في المملكة بعض المتوجات الزراعية من الخضراوات والفواكه المتنوعة. (ابن جريس).

(٢) لم يستقر فيليبي على اسم واحد للجنيدي، فيذكره مرة (سيد) وأخرى (علي)، واعتقد أن اسمه سيد بن علي الجنيدي لتكرار هذا الاسم أكثر من مرة عند فيليبي. (ابن جريس).

وانتشرت فوق سهل سعيد، الذي كانت تحت إمرته أعداد كبيرة من البنادق والمدافع الرشاشة، وسرعان ما جعل موقف اليمنيين، الضعيفي التسليح، صعباً لا يطاق. كان العشر في محصول التمر هو مصدر الدخل الرئيس لخزينة الحكومة في نجران، وكان يدفع عادة من جنس المحصول. جلب المحصول السابق للحكومة نصيباً يقدر بـ (١٥٠٠) فرق، ويعادل الفرق (٢٤) صاعاً، أو إجمالي (٣٦٠٠٠) صاع، مما يدل على المحصول الإجمالي كان (٣٦٠,٠٠٠) صاع - صاع نجران أقل من صاع مكة-، على أقل تقدير. وإذا أخذنا سعر الصاع الذي يزن أربعة كيلوجرامات في أبعها (٣,٨٦ كجم) فإن المحصول النهائي سيكون حوالي (١,٤٤٠,٠٠٠) كجم، ولكنه ربما كان أكثر من ذلك، لنقل مليونين من الكيلوجرامات^(١).

رافقت الأمير صباح اليوم التالي في دورة تفتيش أولية استكشافية لأطلال الأخدود، التي سأحتفظ بوصفها إلى فصل خاص بها. كان علينا أن نعبر في طريقنا مجرى الوادي الواسع، غير أن سيارتي غاصت في المستنقع، وقد تركتها للآخرين ليخرجوها من المأزق وسرت مترجلاً بقية مسافة المجرى لألحق بالأمير وجماعته الذين كانوا في انتظاري في ظل بعض الصخور على جانب الوادي البعيد. أمضينا فترة النهار، في طريق العودة، في مزارع نخيل الحظن، وقد لحق بنا جابر بن نصيب، (ثالث الأشقاء) وأيضاً سالم بن منيف أكبر أبناء سلطان وهو شيخ قبيلة جشم يام^(٢). كما تجولت في أنحاء مزرعة النخيل بحثاً عن الطيور في

(١) لمزيد من الإيضاح عن الأوزان والمقاييس في جنوبي البلاد السعودية خلال القرن الرابع عشر الهجري، انظر: مبارك المعبدى. النظم الإدارية والمالية في تهامة عسير خلال الإشراف السعودي (١٣٤٥ - ١٣٥١هـ) ص ٢٠٤، ٩٤؛ ابن جريس، عسير ١١٠٠ - ١٤٠٠هـ، ص ١٨٧ - ١٨٩. (ابن جريس).

(٢) تعود زعامة قبائل يام إلى ثلاثة مشائخ أساسيين هم: ابن نصيب، وابن منيف، وأبو ساق. ولمزيد من التفاصيل انظر: فؤاد حمزة. في بلاد عسير (الرياض: مكتبة النصر، ١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م) ص ١٧٦ - ١٨٠. (ابن جريس).

صحبة مجموعة من الصبية الصغار وعدنا إلى قصر أبالسعود في وقت متأخر من العصر، وفي الوقت المناسب لتناول العشاء بمنزل علي الجنيدي. كانت هنالك قطرات مطر قليلة عند المغرب (٢٧ يونيو)، وظل الطقس لعدة أيام غير مستقر، كأنما يتهيأ لعاصفة. تداخلت الظواهر الجوية الكهربائية مع استقبال جهاز اللاسلكي. كانت أقصى درجة حرارة في الظل أثناء النهار ١٠٤ درجات وكانت الدرجة الدنيا في الليلة السابقة ٧٢ درجة، وبرهنت الأحوال الجوية لمتصف الصيف في نجران أنها مريحة بدرجة مدهشة.

كان من بين زائريّ في صباح اليوم التالي، شخصية قيادية لجلالية صغيرة يهودية في نجران، والذي كنت قد سمعت عنه من قبل في أباها أنه خبير في الآثار القديمة. اسمه يوسف، رجل في منتصف العمر، ذو جاذبية وجميل خارج المؤلف. سآراه والعديد من مجموعته الدينية كثيراً هذه الأيام، لجمع كل الحقائق عن تاريخهم ونشاطاتهم والتي سأناقشها كاملة في وقت لاحق^(١).

أعد لي الأمير، في هذه الأثناء، برنامجاً ليوم كامل لفحص بعض الآبار المهجورة القديمة والأطلال عند مقرن مسيل نهوقة مع الوادي تحت سفوح سلسلة أبو همدان وخلف مزارع الحظن. كان الإحساس بقيمة الماء ملموساً في أوساط العرب، فقد خطر بباله أن وجود مجموعة من الآبار القديمة عند ذيل بطن السيل في وادي نهوقة، عند البقعة التي يلتف فيها إلى أسفل عبر مجموعات نخيل

(١) كان في بلاد نجران وما حولها من المناطق بعض الأسر اليهودية المحدودة خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، ثم هاجر معظمها إلى اليمن أو إلى فلسطين، في حين أن عدداً قليلاً منهم ترك اليهودية ودخل الإسلام وبقي في موطنه حتى الآن. (ابن جريس).

الحضن والبديع^(١)، إلى الوادي الرئيس، يمكن إحيائها بواسطة هندسة بسيطة وكان الغرض من الزيارة هو تفقد تقدم العمل الذي بدأه هو بالفعل على هذه الأسس خلال هذه النزهة والتي اختتمت بعشاء في العراء في الدلتا العريضة لوادي نهوقة، بينما خلد هو إلى الراحة بعد أن فحصنا الآبار^(٢)، وانطلقت أنا في حرية مستكشفاً واحة نجران وتمكنت أن أصعد قمة أبو همدان في صحبة جابر بن نصيب وأحد رجال قبيلته لمواجد، واسمه مسفر، وهو رجل صموت، قليل الكلام ذو زخم موسوعي بالمعرفة حول جغرافية نجران. كان جابر بطيئاً في الاستيعاب ويميل إلى أن يكون خنوعاً، وبدا لي أنه أحسن من شقيقه الآخرين خاصة في مقدرته تسلق السفوح الشديدة الانحدار، الصعبة، والصخرية في جبل أبو همدان، وهو حافي القدمين - كل هذا دفعني لتفضيله وبقوة. صار فيما بعد مرافقاً مستديماً لي في كل تجولاتي، وكل ما أتمناه له أن يكون قد ارتاح لما كنت أسقطه من فتات مودتي على أمثاله.

شمخت قمة أبو همدان إلى (١٢٠٠) قدم فوق مستوى وادي نهوقة الذي تقع أسفلها، وقد أمكنتني أن أطل منها على منظر عام للواحة، ومن الطرف إلى الآخر كما كنت أتمنى. كان التل والسلسلة التي وقف عليها من جرانيت مع مساحات متكررة من كوارتز، على عكس جلاميد وادي نهوقة إلى الخلف، وفي الحقيقة فإن الجلاميد على الجانب الأيمن لوادي نجران، يكون فيها الحجر الرملي

(١) البديع يسمى أيضاً (البديعة). (ابن جريس).

(٢) من خلال جولاني في نجران خلال صيف عام (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٤م)، تم مشاهدة العديد من الآبار المنتشرة في منطقة نجران والتي يعود تاريخ بعضها إلى الوراثة مئات السنين، ومنها الذي ظهر عليه الخراب والدمار، وبعضها الآخر لا زالت تستخدم في الزراعة، وأحياناً يحتاجها البدو في سقي مواشيهم. (ابن جريس).

موضِعاً فوق الأساس الجرانيتي وإلى عمق مئات الأقدام. كان الوقت متأخراً فترة ما بعد الظهر، لسوء الحظ، عندما وصلنا إلى القمة وعلينا أن نعود من عند هذه الجلاميد قبل حلول الظلام، وفي الحقيقة، لم نتمكن من الوصول إلى منتجنا في الوادي إلا بعد غروب الشمس، وقد ثبتت لنا أهمية هذا المعسكر الدائم للقائد سالم، والذي فيه تفضل أسرته استنشاق هواء الصحراء الصحي، بدلاً عن ذلك الهواء الخانق في مسكنهم في قصر أبالسعود. كان مضيفنا سالم في هذه المناسبة قد أعد لنا عشاء فاخراً، غير أنني شعرت بالأسف إذ أنه لم يتبق لي كثير من الوقت لمسح المنطقة من عند قمة أبو همدان، والذي أترك الحديث عن سماته العامة إلى مرحلة لاحقة من قصتي. لم نتباطأ طويلاً بعد أن تناولنا العشاء في معسكر سالم وقدنا السيارة مع الأمير في الظلام.

كان اليوم التالي (٢٩ يونيو) هو يوم الإثنين، أحد اليومين الذين يعقد فيهما السوق الأسبوعي في نجران - كان اليوم الآخر هو الخميس. يقام سوق الإثنين في أرض الاستعراض الكبيرة المكشوفة أو الساحة المخصصة للمعسكرات والتي تمتد من عند الجدار الجنوبي لقصر أبالسعود إلى حيث الحافة العريضة للغطاء النباتي المكوّن من شوك الجمل، والقصب والأراك، إلخ - على امتداد الجانب الأيمن للوادي. يقف صف من المتاجر وحيدة الطابق، على الجانب البعيد من هذه الساحة، مقابل القصر، وكلها مبنية من اللبن، وقد أقامتها الحكومة وتم تأجيرها إلى التجار الذين يرغبون في تخزين بضائعهم. ينصب بقية البائعين خياماً مؤقتة أينما كان ذلك مناسباً أو ممكناً ويقوم الحشد الكبير من الناس بالطواف، أو التجمع حول المتاجر والأكشاك يشترون ما يريدون، أو يراقبون عمليات البيع والشراء من زملائهم فقط، أو يتحدثون.

كانت السيدات بكثافة عديدة ملحوظة أيضاً، ومعظمهن متسختات، وفي أسمال بالية، كأزواجهن وأشقائهن. رأيت إحداهن ويجب أن أضيف أنها تبدو فاقدة لعقلها وهي تطوف أمام القصر في مرأى من حشد من الجنود ورجال الشرطة، وهي متراخية في ظل جداره. كانت أيام الأسواق هذه مناسبات عظيمة للفتيات المحليات ليرين أزواج المستقبل أو الواعدين منهم وكذلك ليراهن الشباب من العزّاب وكانت الفتيات غير المتزوجات يأتين إلى سوق الجمعة في أحسن تسريحة لشعورهن وقد قمن بدهنه وتشحيمه وتجعيده طبقاً لآخر موضحة.

كان اللون المحبوب والشائع هو الأزرق الداكن والذي يستخلصونه من النيلة (اندقو) المحلية، والذي كان يستخدم أيضاً كدهان للبشرة، ويكسب الأذرع والوجه مسحة مزرقّة لامعة.

يرفع السوق عند حلول وقت صلاة الظهر، غير أنه في هذه المرة كان مملاً مما دفعنا إلى مغادرته مبكراً، مع جابر بن نصيب وزميلي مسفر وفرج المخلصين، وكلهم من مجموعتي، وقمنا بجولة على ظهور الحمير لتفقد الوادي إلى عند المفوجة وهي أعلى قرى نجران وكذلك خليج المضيق وسنذكره فيما بعد.

نزلنا ضيوفاً على نقطة الشرطة المحلية، في المفوجة لتناول بعض الشاي والقهوة، التي يحتلها حوالي نصف دسنة من رجال مرحين، معظمهم من الحجاز، يخفون عن نفهم لأرض أدركها الظلام، وأكثر ما زادهم خفة هو حقيقة أن روايتهم لم تدفع لهم منذ أربعة أشهر، ويرادهم أمل ضعيف لأي تحسن متوقع وقريب^(١). كانوا متعجبين ومهتمين ببحثي في الطيور والحوانات وأكثر ما أعجبهم إحساسهم بأنني أكسب من وراء هذا العمل.

(١) واليوم أصبحت نجران من البلاد التي نالها جزء من النمو والتطور الذي شمل أنحاء المملكة العربية السعودية. (ابن جريس).

استغرقت الرحلة ساعة وثلاثة أرباع الساعة، في سرعة متوازنة للعودة من المofجة إلى قصر أبالسعود. وهي مسافة تقدر بثمانية أو تسعة أميال يكون الطول الإجمالي للواحة، من المofجة إلى آل منجم، على هذا الأساس حوالي (١٥) أو (١٦) ميلاً. وتكون المسافة من المofجة إلى بئر الخضراء، وهما النقطتان الطرفيتان لوادي نجران، حوالي (٣١) ميلاً على الأكثر. يكون عرض الوادي في المتوسط من ميلين إلى ميلين ونصف الميل من الجانب إلى الآخر، وأن نصف هذه المسافة حزام من النخيل المتقطع.

مررنا بالحديقة الجميلة المسورة، التي تسمى خشيو، ونحن في طريقنا إلى المofجة، مقر رئاسة المكارمة بنجران^(١)، وزرنا قلعتها الكبيرة المدمرة، وتدعى عان المكارمة، وهي لا تزال قائمة في صورة جذابة فوق جرف عالٍ يبرز من فوق تلال الجانب اليسار لمجرى الوادي، مقابل أبو همدان. وجدنا القلعة ليست فقط في حالة مدمرة، ولكنها أيضاً مهجورة تماماً، ذلك لأن كل ساكنيها كانوا معسكرين في وادي نهوق، عدا امرأتين أو ثلاث، من الخادمت يقرن بالإشراف عليها. لم يكن لديهن شاي أو قهوة ليقدمنها لنا، ويبدو أنه لا يوجد ما يؤكل غير دجاجات هزيلة. كانت الغرف خالية من الأثاث من أي نوع كان، وهي مجرد أكواخ مع محاولات ضعيفة لصور جدارية كضرب من الزينة. يبدو البناء، قوياً بما فيه الكفاية من الخارج، غير أن عملية بنائه كانت ضعيفة. كانت هنالك نقوش قليلة

(١) المكارمة: — نسبة إلى الداعي الإسماعيلي المسمى محمد بن إسماعيل المكري (ت ١١٢٩هـ)، والذي هرب من بلدة طيبة في اليمن إلى أن استقر به القرار في نجران، ثم نشر مذهبه (المذهب الإسماعيلي) بين سكان نجران الياميين، وأصبح هو وخلفه أصحاب الزعامة الروحية على معظم سكان المنطقة. للمزيد، انظر: فؤاد حمزة. في بلاد عسير، ص ١٧٢ — ١٧٥. (ابن جريس).

على سطح الصخور باللغة العربية العادية، إلى جانب رسومات ضعيفة جداً للحيوانات. كما توجد قلعتان مدمرتان تابعتان للمكارمة، يمثلان أول القرى للمكارمة في منطقة نجران، ويقعان إلى مسافة أبعد، باتجاه أعلى الوادي على جانب تل لرافد يسمى شعب برآن.

ثبت لديّ أن الأمير متحمس جداً للمساعدة في مشاريعي المختلفة كما كان القاضي أيضاً مهتماً بها. كان هنالك احتمال التأخير، ذلك بسبب ندرة البترول في نجران ولا بد من الانتظار إلى حين وصول إمدادات مستعجلة ترسل من مكة، والمفترض أنها في الطريق الآن. لقد استهلكنا عشرة براميل سعة (١٢) جالوناً من البترول، لعرباتنا الثلاثة من أبها إلى نجران، مسافة تقدر بـ (٣٠٠) ميل. أعطى هذا متوسطاً ضعيفاً جداً، حيث غطى الجالون الواحد في المتوسط (٧,٥) أميال لكل سيارة، غير أن الشاحنة لا بد أن تكون قد استهلكت ضعف ما استهلكته أي من السيارتين الأخريين. كانت النتائج، مع ذلك، مزعجة إلى حد بعيد، وسنحتاج إلى كمية كبيرة جداً من الوقود قبل أن نحاول الشروع في تنفيذ هذه الرحلة الطويلة إلى الجنوب والتي لن نستطيع في أثناءها أن نعوض ما فقدناه قبل الوصول إلى شبام. كان عليّ أيضاً أن أنتظر وصول سيارة البريد، والتي لا نعلم شيئاً عن برامج إرسالها، ولزيادة متاعبي، فإن محطة لاسلكي نجران لم تسمح لي باستلام رسائل المشفرة، إلى مكثبي في جدة بل طلبوا مني أن أقوم بإرسال كل مراسلاتي التلغرافية علناً.

قررت بكل ما لديّ من حكمة مواجهة إقامة مؤقتة غير أنها ستكون طويلة في نجران. يوجد برغم ذلك، الكثير الذي يمكن رؤيته هنا، ولم أكن في عجلة من أمري إلا أن هنالك إحساسي العصبي الذي يتتابني من حين لآخر بأن الملك قد

يغير رأيه حول مشاريعي ويقوض برنامجي . لقد استنزفت ستة أسابيع مع نهاية يونيو من جملة الوقت المحدد في برنامجي الذي تضمن (٤٥) يوماً كحد أقصى «في نجران» لتغطية خططي لرحلة إلى الجنوب . تبقى لي بناء على هذا، فقط ثلاثون يوماً من مدة (٧٢) يوماً (حداً أقصى) المتوقعة للرحلة الخارجية، من بينها (٢٤) يوماً ستمضي في نجران قبل أن أبدأ رحلتي للجنوب، وبذلك أكون في مأمن من أي ملاحقة أو أي استدعاء .

تناوبتني هذه المخاوف على فترات متقطعة . شغلتنني نجران تماماً في هذه الأثناء، في اليوم الثلاثين من يونيو - وبترتيب مع الأمير - غادرت قصر أبي السعود لزيارة مطولة إلى الأخدود، والتي لم أرجع منها إلى مقر الإمارة إلا عصر الثامن من يوليو . دعاني الأمير، في تلك الأمسية إلى تناول العشاء، في حفل كبير حضره القاضي والقائد سالم، وعلي الجنيد، وغيرهم، كلهم كان متطلعاً لسمع عن استكشافاتي لأطلال نجران . كان الأمير نفسه غائباً عصر ذلك اليوم في مهمة لوضع حد للنزاع الذي وقع بين أبي ساق وابن منيف حول أرض في آل منجم، لقد قابلته عند حضوري وهو يتهياً لذلك، وقد أبلغني حينها بالأخبار بأن فريقاً علمياً مصرياً قد وصل إلى اليمن برئاسة سليمان أحمد حزين، إلا أن الإمام رفض السماح لهم بزيارة مأرب (وشبوة).

كانت هذه أخبار مفرحة بالنسبة لي فيما يخص أهدافي المتعلقة بشبوة، غير أنه يدور الحديث أن تلك البعثة بعد أن زارت وادي خريد ووادي عمران والقفلة ربما كانوا يخططون للوصول إلى نجران عن طريق صعدة؟ وكنت متطلعاً أن أغادر نجران قبل وصولهم، ولم يتحقق هذا مطلقاً، ذلك لأن الإمام رفض الإذن للبعثة

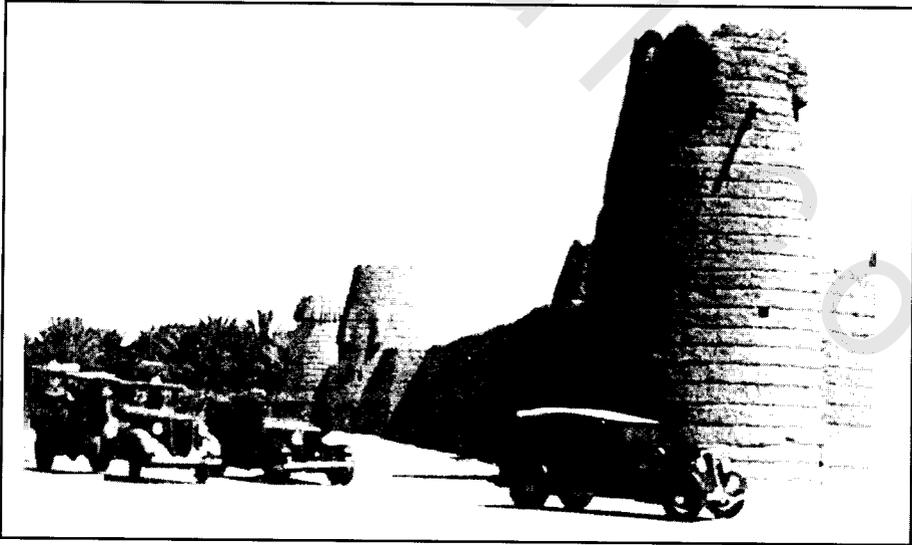
بزيارة صعدة وكان متشوقاً أن يحرمهم التمتع بكرم أراضي السعوديين. أشعر الآن بالأمان وذلك حينما نقل إليّ علي جنيدي الأخبار الممتازة بوصول حاجتنا من البترول أثناء غيابي في الأخدود. والآن سأتناول استقصاءاتي لذلك المكان في فصل قائم بذاته .



obeykandi.com



منزل وحديقة سعيد بن كدسة في بيشة



مغادرة قصر الروشن (بيشة)



عيون فضية وبجوارها بدو وأغنام



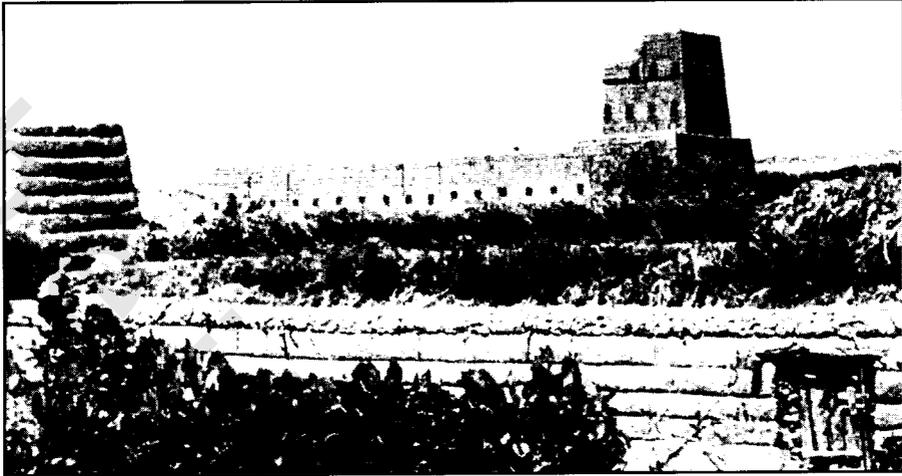
ثلاثة أجيال نسائية بجوار بئر جديد بالقرب من وسيط (خيبر)



سعيد بن مشيط بجوار باب القصر في ذهبان



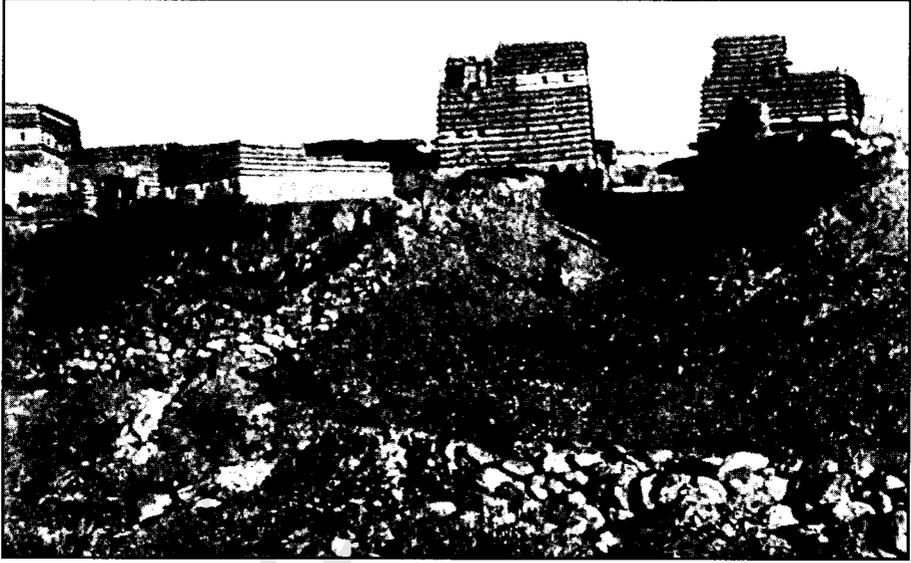
قصر أبي ملححة في خميس مشيط



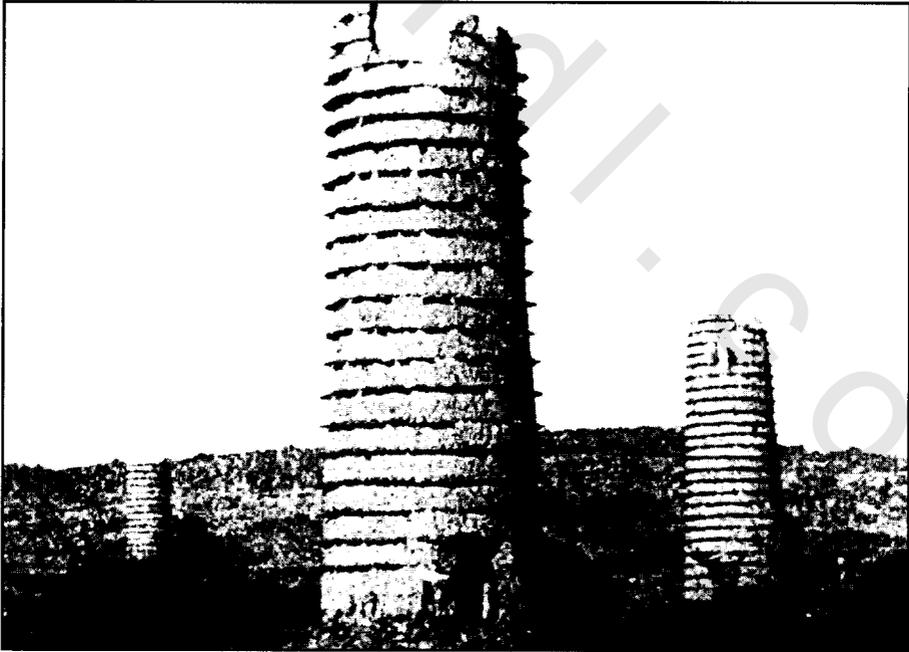
قصر وحديقة سعيد بن مشيط في ذهبان (خميس مشيط)



صخرة ذات نقوش بالقرب من خميس مشيط



الطريق الرئيس إلى محايل والقنفذة ماراً عبر جناح قرية مناظر في أبها



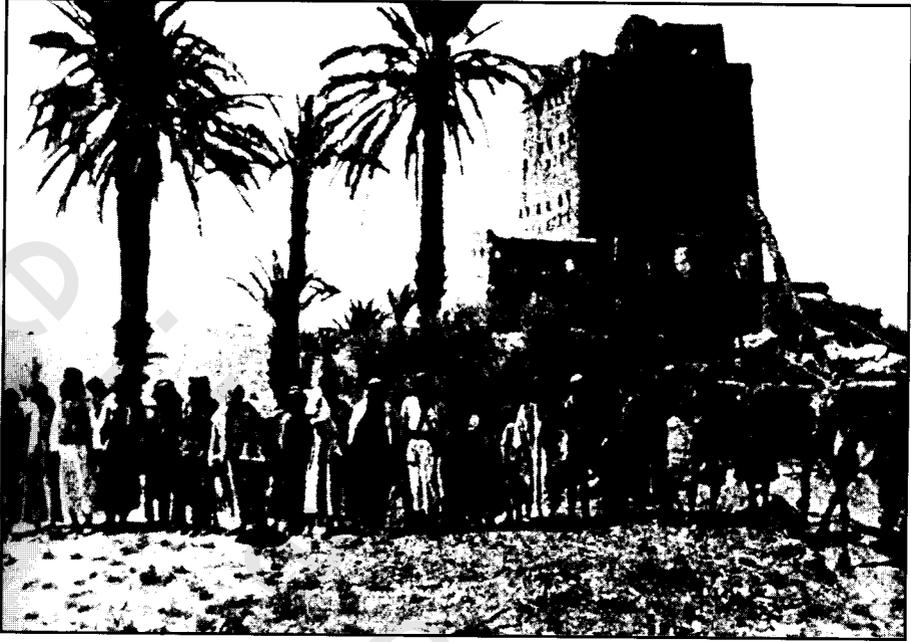
قرية حجلا في الطريق إلى أبها



نجران : صخرة مهالقة ذات نقوش في عمر حجرية



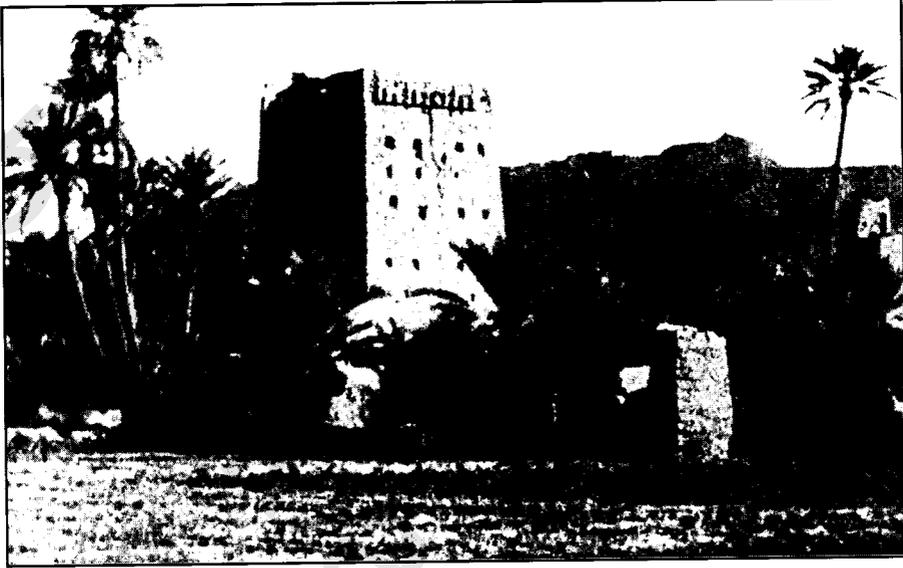
عالي ومحمد من قرية السوداء في الجبال



نجران : مجموعة من أهل زبدة بجوار بئر



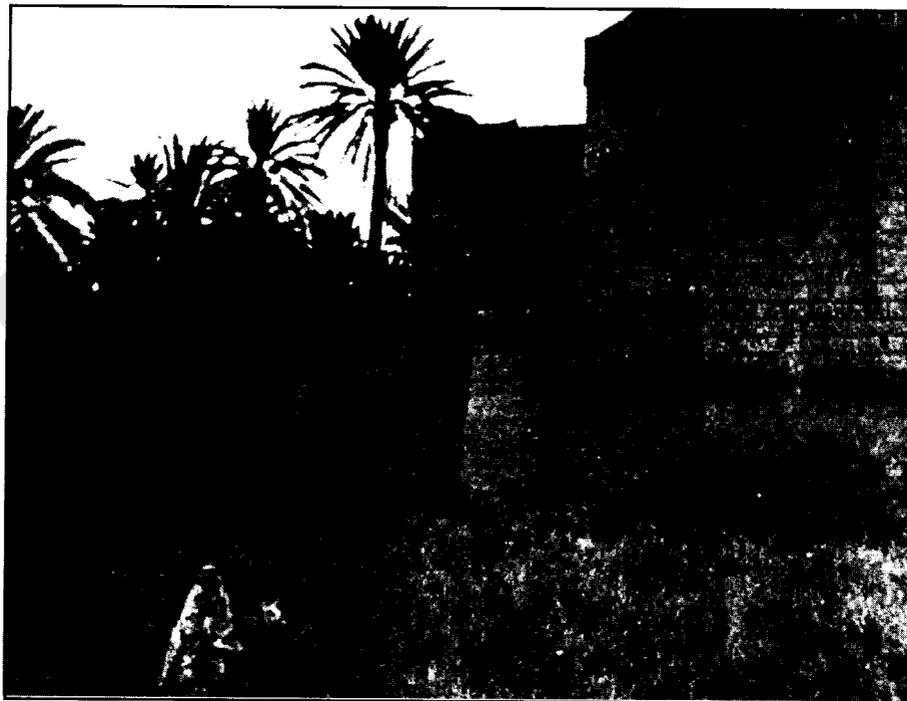
معبد الشمس في المنقع



نجران: قرية سلف الصغيرة في القابل



نجران: خيمة سلطان بن منيف بالقرب من الهفوف



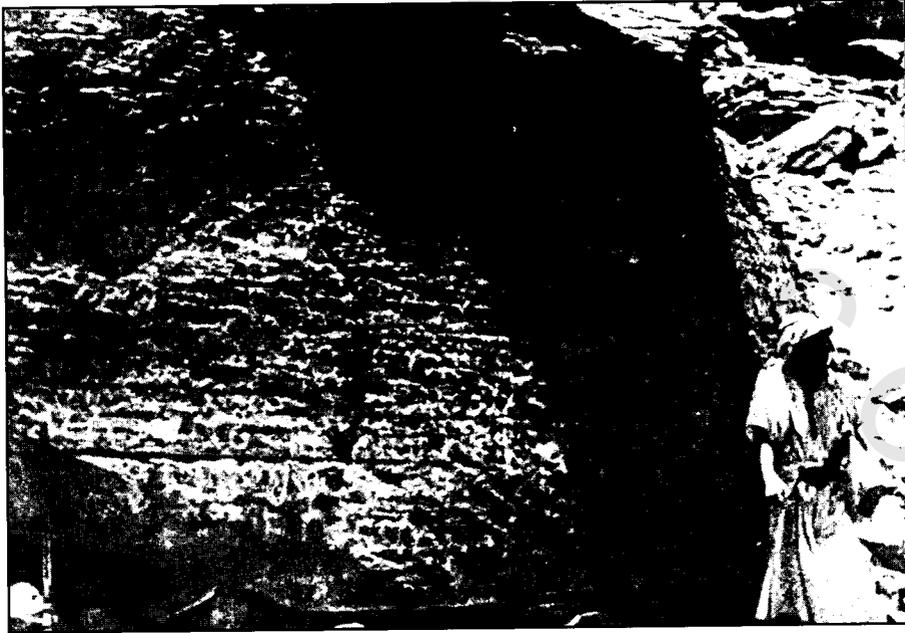
نجران : قصر في رجلا



نجران : صور صخرية بالقرب من أم خرق



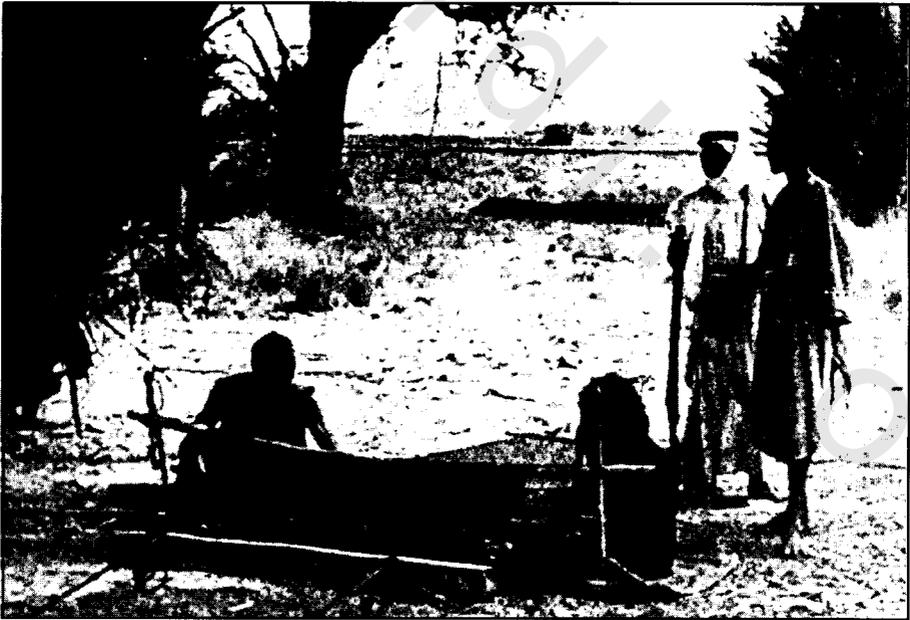
نجران: نقوش في قمة كهف عرير



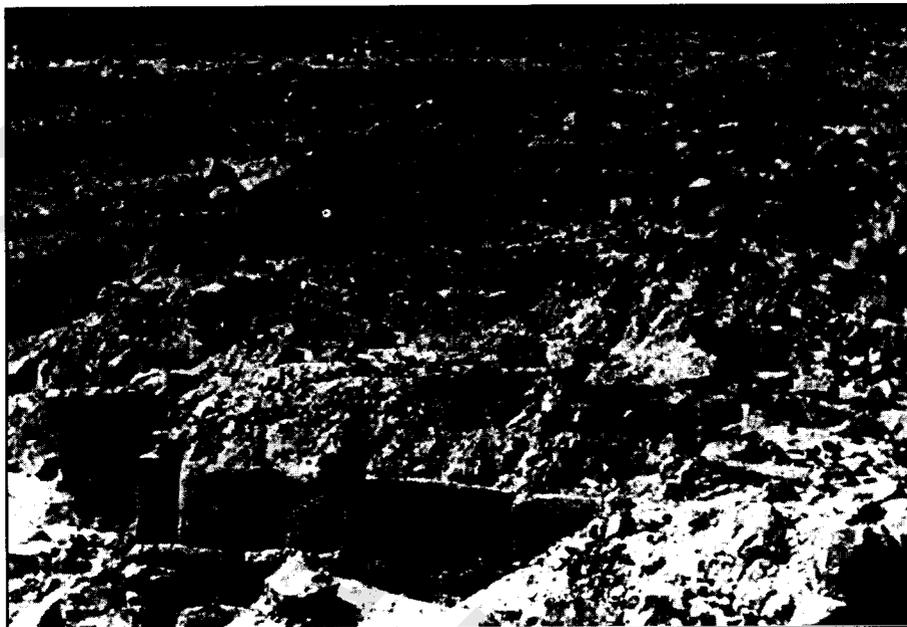
نجران: كتلة حجر رملي ذات نقوش بالقرب من رأس شعيب نهيقه



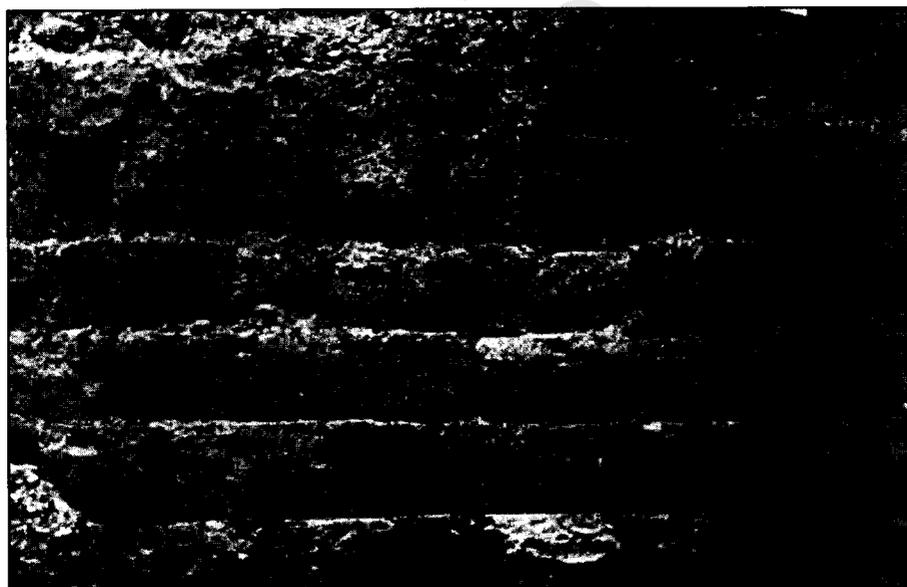
نجران : مجموعة اليهود في نجران في أوكللا



نجران : رجل و بنت ينسجان السجاد في دكضة



نجران : أطلال حصن الأخدود وقصرها



نجران : طابية الأخدود وقصر ثاني



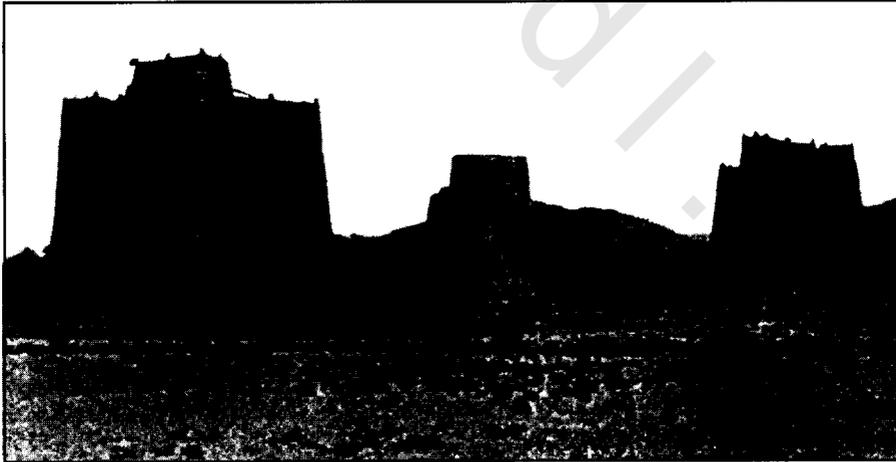
رأس أسد، من نجران



بركة صخرية كبيرة في شعيب: بران



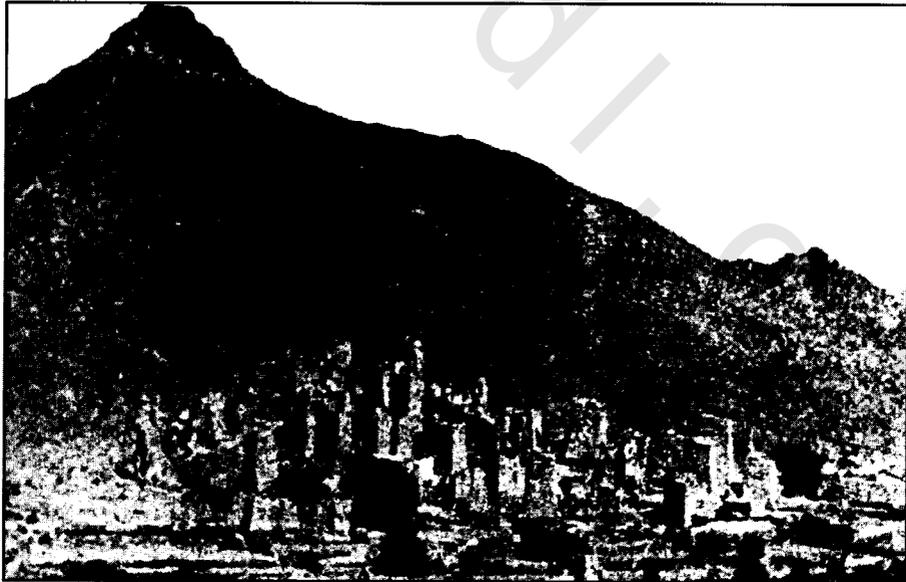
نجران : مسيل غيل في الجزء الأعلى من الوادي



نجران : مقر سكن المكارمة في خشيوه



بئر البقعة في وادي حيوننا



قرية قبضة (قبضة) جنوبي طهران



شجرة نخور منفردة على منحدر الأتم



طريق الفيل يقود إلى وادي تلاح